

سُورَةُ الْحَجِّ

مدنية وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ خطابٌ يعم حكمه جميع المكلفين، إلى يوم القيامة ﴿آتِقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي احذروا عقابه، واعملوا بطاعته، والمأمور به مطلق التقوى، الذي هو التجنب عن كل ما يؤثم به، أي احذروا عقوبة مالك أموركم، ومربيكم، رب العزة والجلال ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ إضافتها إلى الساعة، إضافة المصدر إلى فاعلها، كأنها هي التي تنزل الأشياء، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وعن ابن عباس زلزلة الساعة: قيامها، وعن علقمة والشعبي: أنها قبل طلوع الشمس من مغربها ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ والتعبير عنها بالشيء، إيدان بأن العقول، قاصرة عن إدراك كنهها.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي وقت رؤياكم الزلزلة ﴿تَذْهَلُ﴾ أي تغفل وتنسى مع دهشة ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ أي مباشرة للإرضاع ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ عما بصدد إرضاعها من طفلها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي تلقي جنينها لغير تمام، وهو تمثيل لتهويل الأمر، فالأمر حينئذٍ أشد وأعظم مما وُصف ﴿وَتَرَى النَّاسَ﴾ أي يراهم كل أحد ﴿سُكْرَى﴾ كأنهم سكارى ﴿وَمَا هُمْ بِسُكْرَى﴾ حقيقة ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فيرهقهم هوله، وتطير له عقولهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ كلام مبتدأ لبيان حال بعض المنكرين للساعة، أي وبعض الناس ﴿مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي في شأنه تعالى، ويقول فيه ما لا خير فيه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بلا علم وحجة، روي أنها نزلت في النضر بن الحارث، وكان كثير الجدل، يقول: لا بعث بعد الموت، والقرآن أساطير الأولين، وهي عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين، والمراد من هذه المجادلة، هو المجادلة في البعث، لأن ما قبل هذه الآية وما بعده في أمر البعث ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي يطبع ويقتدي في عامة أحواله ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ أي متجرد للفساد، عات متمرد والمراد ههنا رؤساء الكفر الصادين عن الحق، الذين يدعون من دونهم إلى الضلال.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي على من تولى الشيطان، واتخذ له صديقاً ﴿أَنَّهُ﴾

أي أن الشأن ﴿مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ أي اتخذه ولياً وتبعه ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ عن سواء السبيل، لأنه جبل عليه ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي يدعو ويحمله مباشرة على السيئات التي توصله إلى عذاب جهنم المستعرة، وعبر بلفظ ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ على طريقة التهكم، لأن الهداية لا تكون إلى عذاب الجحيم.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُتِبَ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُسَبِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِي وَيُمْسِكُ مِمَّنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَالِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُتِبَ فِي رَيْبٍ﴾ إثر ما حكى أحوال المجادلين بغير علم أقيمت الحجة الدالة على تحقق ما جادلوا فيه ﴿مِنَ الْبَعْثِ﴾ من إيمانه وكونه مقدوراً له تعالى، أو من وقوعه ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم فإننا خلقنا كل فردٍ منكم ﴿مِنَ تُرَابٍ﴾ في ضمن خلق آدم عليه السلام منه خلقاً إجمالياً ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي مني، من النطف الذي هو الصب، وهذا المنى يحصل من الأغذية، التي تتكون من التراب، يقال: نطف أي سال، والنطفة ماء الرجل والمرأة ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي قطعة من الدم جامدة متكونة من المنى، والعلقة: شيء متجمد من المنى، ينتقل بعد طرده فيصير دماً غليظاً متجمداً، ثم ينتقل طوراً آخر فيصير لحماً، وهو المضغة ﴿ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ﴾ أي قطعة من اللحم متكونة من العلقة ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ أي مستبينة الخلق ﴿وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾ أي لم يستبن خلقها، والمراد تفصيل حال المضغة، وكونها أولاً قطعة لحم، لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت شيئاً فشيئاً ﴿لِّنُسَبِّنَ لَكُمْ﴾ أي خلقناكم على هذا

النمط البديع، لنبين لكم بذلك قدرتنا، وحكمتنا^(١)، مما لا يحيط به العقل، من الدقائق التي من جملتها سر البعث، فإنَّ من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجي، تأملاً حقيقياً، جزم جزماً ضرورياً، بأن من قدر على خلق البشر، من تراب لم يشم رائحة الحياة قط، فهو قادر على إعادته، بل هو أهون في القياس، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ أي ونحن نقرُّ ونثبت في الأرحام بعد ذلك، ما نشاء أن نقره فيها ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت الوضع، وأدناه ستة أشهر، وأقصاه سنتان، وفيه إشارة إلى أن بعض ما في الأرحام لا يشاء الله إقراره فتسقطه ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلاً﴾ أي حال كونكم أطفالاً ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أي ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً، ثم لتبلغوا كمالكم في القوة، والعقل، والتميز، ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَفِّقُ﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله، أو بعده ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِدُ إِلَىٰ أَرْضِ الْوَعْدِ﴾ أي ليعود إلى ما كان عليه، في أوان الطفولة، من ضعف البنية، وسخافة العقل، وضعف الذاكرة ﴿وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ حجة أخرى على صحة البعث، والخطاب لكل أحد، و(هامدة) حال من الأرض أي ميتة، يابسة، من همدت النار إذا صارت رماداً، وذهب حرُّها ولم يبق منه شيء ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المطر ﴿أَهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ انتفخت وازدادت ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ﴾ صنف ﴿بِهَيْجٍ﴾ حسن رائق، يسرُّ ناظره، وهذه دلالة كررها الله تعالى في كتابه، لظهورها وكونها مشاهدة.

(١) دلالة تولد الإنسان من النطفة على وجود الصانع، من أظهر الدلائل، لأن حدوث الإنسان، إنما كان بسبب اجتماع أجزاء متفرقة، في بدن الوالدين، بل في جميع العالم، فلما قدر الصانع، على جمع تلك الأجزاء المتفرقة، وجب أن يقال: إنه بعد موته، وتفرق أجزائه، لا بد أن يقدر الصانع، على جمع تلك الأعضاء، وجعلها خلقاً سوياً كما كان ذلك أولاً، فهذا برهان ناصع، ولهذا استدل به القرآن.

﴿ ذَلِكِ بَانَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٦ .

﴿ ذَلِكِ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة، وإحياء الأرض بعد موتها، لبيان أن ذلك من آثار ألوهيته تعالى ﴿ بَانَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أي ذلك الصنع البديع، حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده، في ذاته وصفاته وأفعاله، المحقق لما سواه من الأشياء ﴿ وَأَنْتُمْ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أي شأنه إحيائها، وأنه قادر على إحيائها، بدءاً وإعادة، وإلاً لما أحيا النطفة، والأرض الميتة مراراً ﴿ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي مبالغ في القدرة فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات، لزم اقتداره على إحيائها كلها.

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ ٧ .

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ فيما سيأتي، وإيثار صيغة الفاعل للدلالة على تحقق إتيانها، لاقتضاء الحكمة إياه لا محالة ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ في ظهور أمرها، ووضوح دلائلها ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ للجزاء، وهذه كما ترى من أحكام حكمته وجلاله، أنه تعالى حكيم عادل، لا يخلف ميعاده، وقد وعده بالساعة والبعث، فلا بد أن يفى بذلك.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ

مُنِيرٍ ﴾ ٨ .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الآية فيمن يتصدى لإضلال الناس، كما أن الأول فيمن يقلدهم فلا تكرر ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ هو الاستدلال بالأدلة العقلية ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ أي وحي مظهر للحق، فالمعنى: يجادل في شأنه تعالى، من غير تمسك بمقدمة علمية، ولا بحجة نظرية، ولا برهان سمعي، فهو يجادل بالباطل.

﴿ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

﴿ ثَانِي عَطْفِهِ ﴾ أي عاطفاً لجانبه، معرضاً متكبراً، فإن ثني العطف كناية عن التكبر ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ متعلق بيجادل، فإن غرضه الإضلال عنه، وإن لم يعترف بأنه إضلال، أو معرضاً عن الحق استخفافاً به ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أي النار الشديدة المحرقة .

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ .

﴿ ذَلِكَ ﴾ ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروي ﴿ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ﴾ أي بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي، والالتفات لتأكيد الوعيد، وكثي عنه باليد، لأن اليد آلة الكسب ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أي ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب، وإنما هو مجازٍ لهم على أعمالهم، فحكمه عدل .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ ﴾ شروع في بيان حال المذبذبين، إثر بيان حال المجاهرين ﴿ عَلَى حَرْفٍ ﴾ أي على طرفٍ من الدين، وهذا مثلٌ لكونه على قلق، كالذي ينحرف إلى طرف الجيش، إن أحسنَّ بظفرٍ قرٍّ، وإلاَّ قرٍّ ولهذا قال سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ من الصحة والسعة، أي ثبت على ما كان عليه ظاهراً، لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين، الذين لا يلويهم عنه صارف ﴿ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي شيء يُفْتِنُّ به من مكروه يعتره في

نفسه، أو أهله، أو ماله ﴿أَنْقَلَبَ عَلَيَّ وَجْهِي﴾ أي ارتدَّ ورجع إلى الوجه الذي كان عليه، من الكفر، روي أنها نزلت في قوم من الأعراب، «كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا صحَّ بدنه، ونتجت فرسه مهراً، وولدت امرأته غلاماً، وكثر ماله، قال: هذا دينٌ حسنٌ، وقد أصبت فيه خيراً واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً، وانقلب»^(١) ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ ضَيَّعَها بذهاب عصمته، وحبوط عمله بالارتداد ﴿ذَلِكَ﴾ خسران الدارين ﴿هُوَ الخُسْرَانُ المَمِينُ﴾ الظاهر الذي لا يخفى على أحد.

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ
الْبَعِيدُ﴾.

﴿يَدْعُوا﴾ استئناف مبين لعظم الخسران ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي يعبد متجاوزاً عبادة الله تعالى ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ إذا لم يعبده ﴿وَمَا لَا نَبْعُهُ﴾ إن عبده، أي يعبد جماداً ليس من شأنه الضر والنفع ﴿ذَلِكَ﴾ أي الدعاء والعبادة لغير الله ﴿هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ﴾ عن الحق والهدى.

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ المَوْلَى وَلَيْسَ العَشِيرُ﴾.

﴿يَدْعُوا﴾ استئناف لتقرير كونه ضلالاً بعيداً ﴿لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ أي يعبد وثناً وصنماً ضرُّه في الدنيا - لو سلمنا ضره ونفعه - أكثر من نفعه، لأنه يعبد جماداً لا حسَّ له ولا شعور، فهو يتضرر بعبادته دون أي جدوى أو منفعة، وإيراد صيغة التفضيل مع خلوه عن النفع، للمبالغة

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج عن ابن عباس، وانظر كامل الرواية في جامع الأصول ٢/٢٤١.

في تقييح حاله، أي يقول يوم القيامة حين يرى تضرره بمعبوده، ودخول النار بسببه ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ الناصر هو ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ ولبئس المصاحب هو، وقيل: هذا في الرؤساء، وهذا الوصف بالرؤساء أليق، ولا يستعمل في الأوثان.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿ استئناف لبيان حال المؤمنين، العابدين له، إثر بيان غاية سوء حال الكفرة ومآلهم، وأن معبودهم لا يجديهم شيئاً من النفع، بل يضرهم مضرة عظيمة، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليل لما قبله وتقرير له، أي يفعل كل ما يريد من الأفعال اللاتقة المبنية على الحكم الرائعة التي من جملتها إثابة من آمن وعقاب من أشرك به.

﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الضمير في ﴿ينصره﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام تحقيقاً للنصرة، وتقريراً لثبوتها، على أبلغ وجه، وفيه إيجاز بارع، والمعنى: أنه تعالى ناصرٌ لرسوله ﷺ في الدنيا والآخرة، لا محالة، فمن كان يغيظه ذلك، من أعاديه وحسّاده، فليبالغ في استفراغ المجهود، فقصارى أمره أن يختنق خنقاً ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي فليمدد جبلاً إلى سقف بيته ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ أي ليختنق بحبس مجاريه ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ أي فليصور في نفسه ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ﴾ أي إن فعل ذلك بنفسه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ أي ما يغيظه من النصرة؟ كلاً، يعني أنه لا يقدر على

دفع النصره وإن مات غيظاً، وسمي فعله كيداً على سبيل الاستهزاء^(١).

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (١٦).

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكيم البالغة ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ به ابتداء ويثبت على الهداية ﴿مَنْ يُرِيدُ﴾ هدايته وتبتيته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمَجُوسَ﴾ قيل هم قوم يعبدون النار، وقيل: الشمس والقمر ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هم عبدة الأصنام ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيجازي كل ما يليق به، ويدخله المحل المعد له ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لما قبله، أي عالم بكل شيء، ومراقب لأحواله، ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يَمُن بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٨).

(١) خلاصة معنى الآية: من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله في الدنيا والآخرة، فليمدد بحبل إلى السقف ثم يشق نفسه، ويختنق به، فلينظر هل يشفي ذلك ما في صدره من الغيظ من دعوة الرسول ﷺ؟ قال الحافظ ابن كثير: وهذا القول قول ابن عباس، وهو أظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم، أي فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية، والمراد بالسجود الانقياد التام لتدبيره تعالى، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء، وقيل: إن الكل يسجد له، ولكننا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (١) ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ أفردتها بالذكر لاستبعاد ذلك منها عادة ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿ وَكَثِيرٌ ﴾ معطوف على كثير الأول، للإيذان بغاية الكثرة، ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب، كأنه قيل: وكثير من الناس ﴿ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ أي بكفره واستعصائه ﴿ وَمَنْ يَنْهِنِ اللَّهُ ﴾ بأن كتب عليه الشقاوة، حسبما علمه من صرف اختياره إلى الشر ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ يكرمه بالسعادة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإكرام والإهانة.

﴿ هَذَانِ حَصْمَانِ أَخْضَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾

﴿ هَذَانِ حَصْمَانِ ﴾ أي فريق المؤمنين، وفريق الكفرة، يختصمان والخصم صفة وُصف بها الفوج، فكأنه قيل: فوجان يختصمان ﴿ أَخْضَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ أي في شأنه عز وجل ودينه، في ذاته وصفاته، كلٌّ من الفريقين له خصومة على الفريق الآخر، فقد تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقالت اليهود: نحن أحق بالله، وأقدم منكم كتاباً ونبياً، وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله منكم، آمنا بنبينا ونبينا، وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تكفرون به حسداً ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿ يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ ﴿ قُطِعَتْ لَهُمْ ﴾ قدرت على مقادير

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

جنتهم ﴿ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾ أي نيران هائلة، تحيط بهم إحاطة الثياب بلباسها ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي الماء الحار الذي انتهت حرارته.

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿يُصْهَرُ بِهِ﴾ يذاب بالحميم الذي يصب ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ من الشحوم، والأحشاء، والأمعاء ﴿وَالْجُلُودُ﴾ أي تشوى جلودهم فتتساقط، إذا صبَّ الحميم على رؤوسهم، لغاية شدة الحرارة.

﴿وَلَهُمْ مَّقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿وَلَهُمْ﴾ للكفرة أي لتعذيبهم ﴿مَّقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾ جمع مقمعة، وهي آلة القمع، أي سياط يُجلدون بها.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي كلما أشرفوا على الخروج من النار لما يلحقهم ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ أي من غم شديد من غمومها ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي في قعرها، بأن رُدُّوا من أعاليها إلى أسافلها، من غير أن يخرجوا منها ﴿وَذُوقُوا﴾ أي قيل لهم ذوقوا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي النار البالغة في الإحراق.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين، وتصدير الجملة بحرف التحقيق،
إيداناً بمباينة حالهم لحال الكفرة، وإظهاراً لمزيد العناية بأمر المؤمنين
﴿ يُكْوَنُ فِيهَا ﴾ من حَلِيَّتِ المرأة إذا ألبستها الحلي ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾
جمع سوار، وهو ما يلبس في المعصم ﴿ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ أي الأساور الذهبية
﴿ وَلَوْلُؤُا ﴾ أي ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً لهم ﴿ وَلبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾
أي ولباسهم في الجنة الحرير، وهو أرفع اللباس وأفضله.

﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ .

﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أي الكلام الطيب، والقول النافع، إذ
ليس في الجنة لغو ولا كذب، فهم في ذكر وتسيح كقولهم: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ ﴾ ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ أي المحمود وهو الجنة،
دار الخلد والنعيم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي
جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَادُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُظْمِرْ
نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بما جاء به رسول الله ﷺ ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي ويمنعون الناس عن طاعة الله والدخول في دينه، كما
يمنعونهم عن أداء المناسك في البيت الحرام، قال ابن عباس: نزلت الآية
عام الحديبية، لأن قريش صدوا رسول الله ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام
﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾ أي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس، كائناً من كان، من
غير فرق بين قلبي وأفريقي، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إنهما
يستويان في سكنى مكة فليس أحدهما أحق بالمنزل الذي يكون فيه من

الأخر، إلا أن يكون واحد سبق إلى المنزل، وهو مذهب أبي حنيفة واحتجوا عليه بالآية الكريمة، وبالخبر، وهو قوله ﷺ: «مكة مباحة لمن سبق إليها» واحتج الشافعي رحمه الله بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ فقد نسب الدور لهم، وقوله ﷺ يوم مكة «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» وإن أريد بالمسجد الحرام البيت فالمعنى أنه قبله لجميع الناس ﴿سَوَاءً الْعَكَبِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي المقيم وغير المقيم وفائدة وصف المسجد بذلك، زيادة تشنيع الصادين عنه، والبدو خلاف الحضرة ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ﴾ ترك مفعوله ليتناول كل متناول كأنه قيل ومن يرد مراداً ما ﴿بِالْحَاكِمِ﴾ بعدول عن القصد ﴿بِطُلْمِ﴾ بغير حق، وهما حالان مترادفان أي ملحداً بسبب الظلم، كالإشراك، واقتراف الآثام، وكل شيء كان منهياً من قول، أو فعل، روى يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه»^(١) ﴿نَذِقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي نذقه أشد أنواع العذاب الموجه، لأن الكفر والصد من أشد أنواع الإلحاد فيه، وكل من ارتكب ذنباً فهو كذلك.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا
وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي اذكر وقت جعلنا ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ مباءة له عليه السلام أي مرجعاً إليه، للعمارة، والعبادة، وقيل (بوأنا) أي بينا مكان البيت فبعث الله سبحانه ريحاً، فكنست له ما حول البيت عن الأساس وقيل: بعث الله سحابة بقدر البيت وقيل يا إبراهيم ابن علي قدرها ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ مفسرة لبوأنا لأنه متضمن لمعنى تعبدنا، أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي شيئاً ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ أي وطهر بيتي من الأوثان

(١) أخرجه أبو داود رقم ٢٠٢٠ في المناسك، باب تحريم حرم مكة.

والأقذار ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي لمن يطوف، ويصلي فيه، عبّر عن الصلاة بأركانها، لأن الركوع والسجود أهم أركانها.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ﴾ أي أعلم ونادٍ فيهم ﴿بِالْحَجِّ﴾ بدعوة الحج، والأمر به، روي أنه عليه السلام «صعد أبا قبيس، فقال: يا أيها الناس حجُّوا بيت ربكم، فأسمعه الله تعالى من قُدْرٍ لهم أن يحجوا، فقالوا لبيك اللهم لبيك» ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي مشاةً على أرجلهم جمع راجل ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل بعير مهزول، أتعبه بُعْدُ السفر ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لضامر، لأنه في معنى الجمع ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ﴾ أي من كل طريقٍ واسع ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد، فمن أتى الحج، فكأنه قد أتى إبراهيم عليه السلام، لأنه مجيب لندائه، يُقال: ضَمَرَ الفرسُ أي هزُل ودقَّ وقلَّ لحمه، وقَدَّمَ الرجال على الركبان، إظهاراً لفضيلة المشاة، والحج فريضة لما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناسُ قد فَرَضَ اللهُ عليكم الحجَّ فحجُّوا»^(١).

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبِائِسَ الْفَقِيرَ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿لِيَشْهَدُوا﴾ أي ليحضروا ﴿مَنَافِعَ﴾ عظيمة الخطر، كثيرة العدد، من المنافع الدينية والدنيوية، المختصة بهذه العبادة ﴿لَهُمْ﴾ أي كائنة لهم

(١) طرف من حديث أخرجه مسلم رقم ١٣٣٧ في الحج.

﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ عند ذبح الهدايا والضحايا، ﴿ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ هي أيام النحر، وهي عشر ذي الحجة عند أبي حنيفة وآخرها يوم النحر، وهو قول ابن عباس، وقول أكثر المفسرين، وعند صاحبيه هي أيام النحر، وهو قول ابن عمر ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ وهو يؤيد قولهما، علق الفعل بالمرزوق، ويبين بالبهيمة تحريضاً على التقرب، وتنبهاً على الذكر ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أي فاذكروا اسم الله على ضحاياكم، وكلوا من لحومها، والأمر للإباحة لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم ﴿ وَأَطْعَمُوا الْأَبْيَاسَ ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة ﴿ الْفَقِيرِ ﴾ المحتاج.

﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾.

﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أي ليؤدوا إزالة وسخهم، قيل: قضاء التَّفَثِ قَصُّ الشارب، والأظفار، ونتف الإبط، والاستحداد، والتَّفَثُ: الوسخ. تَفَثٌ من باب تَعَب. إذا ترك الأدهان فعلاه الوسخ ﴿ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ ﴾ ما يندرونه من البر في الحج، وقيل مواجب الحج ﴿ وَلِيَطَّوَفُوا ﴾ أي ليطوفوا طواف الزيارة، الذي هو ركن الحج، ويقع به تمام التحلل، وقيل: طواف الوداع ﴿ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أي القديم، لأنه أول بيت وضع للناس، أو المعتقد من تسلط الجبابرة، روى مسلم عن جابر بن عبد الله، في قصة حجة الوداع، قال: «وقدم عليٌّ بُدْنٍ من اليمن، وساق رسولُ الله ﷺ مائة بُدْنَةٍ، فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين بُدْنَةً، ونحر عليٌّ ما غَبَرَ - أي ما بقي - ثم أمر من كل بُدْنَةٍ بِبَضْعَةٍ، فجعلت في قِدْرِ وطُبخت، فأكل من لحمها، وشرب من مرقها»^(١).

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الحج، حجة الوداع وهو حديث طويل مشهور، وهذا طرف منه برقم ١٢١٨ وانظر تمامه في جامع الأصول ٣/٤٦٠.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْاَنْعَامُ اِلَّا مَا يُتَلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْاَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۗ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر ذلك، هذا وأمثاله يُطلق للفصل بين الكلامين ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَتَ اللَّهِ ﴾ أي أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه من التكاليف، وقيل الكعبة، ومعنى التعظيم، العلم بأنها واجبة، والقيام بمراعاتها ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ فالتعظيم خير له ثواباً ﴿ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ ﴾ في الآخرة ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْاَنْعَامُ ﴾ أي أن تأكلوها بعد الذبح ﴿ اِلَّا مَا يُتَلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي تحريمه ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْاَوْثَانِ ﴾ الرِّجْسُ: النجس والقدر، وسمى الأوثان رجساً، لأن عبادتها أخبث من التلوث بالنجاسات ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزور، وكأنه حث على تعظيم الحرمات، وأتبع ذلك بتحريم شهادة الزور، لأنها تعدل الإشراك بالله، كما ورد في الحديث الشريف^(١)، وقيل: هو عمل أهل الجاهلية حيث كانوا يقولون في تلبيتهم «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

﴿ حُنْفَاءَ لِلّٰهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ اَوْ تَهْوِي بِهٖ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيْقٍ ۗ ﴾

﴿ حُنْفَاءَ لِلّٰهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ ﴾ أي مستسلمين لأمر الله غير مشركين به أحداً ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ ﴾ جملة مؤكدة لما قبلها، وإظهار الاسم الجليل،

(١) أشار إلى الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور الإشراك بالله، ثم قرأ ﷻ: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْاَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۗ ﴾».

لإظهار قبح الإشراك ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّمْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي سقط، لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ﴾ أي فتخطفه الطير، وتمزقه كل ممزق، وتسلبه بسرعة ﴿أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ﴾ أي تذهب به وتقذفه ﴿فِي مَكَانٍ سَاحِقٍ﴾ بعيد، لا نجاة له ولا خلاص، شبه الإيمان بالسماء في علوه، والذي أشرك بالساقط منه، والأهواء الرديئة بالطير المختطفة، والشيطان بالريح التي تهوي في المهوي المتلفة.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ٣٢ .

﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبِيرَ اللَّهِ﴾ أي الهدايا والأضاحي فإنها من معالم الحج وشعائره تعالى، كما ينبيء عنه قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وهو الأوفق لما بعده، وقيل شعائر الله: أعلام دينه، وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات، وأن يختارها حسناً سماناً غالبية الأثمان، روي أن عمر رضي الله عنه أهدى نجبية طلبت منه بثلاثمائة دينار ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي فإن تعظيمها ﴿مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي من أفعال ذوي تقوى القلوب، وتخصيصها بالإضافة لأنها مراكز التقوى، التي إذا ثبت فيها الإيمان وتمكنت، ظهر أثرها في سائر الأعضاء فإن قال قائل: ما الحكمة أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح الحيوانات؟ فالجواب قوله تعالى:

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ٣٣ .

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الهدايا وقيل في شعائر الله ﴿مَنَافِعُ﴾ هي درها ونسلها وصفوها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والأكل منه ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ أي وجوب نحرها منتهية ﴿إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي إلى ما يليه من الحرم، فالحرم كله مكان لنحر الهدى وذبحه.

﴿ وَلكلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ (٣٤) .

﴿ وَلكلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي لكل أهل دين ﴿ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ أي متعبداً وقراباناً، يتقربون به إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ خاصة دون غيره، فالمقصود الأصلي من المناسك، تذكُر المعبود ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ عند ذبحها، بيِّن تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى، وعلى اسمه، لأنه هو الخالق الرازق، لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ الخطاب للكل تغليياً، ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ أخلصوا له العبادة والطاعة، ولا تشوبوه بالإشراك ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ تجريد للخطاب إلى الرسول ﷺ، أي المتواضعين أو المخلصين في عبادتهم لله .

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣٥) .

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ لإشراق أشعة جلاله عليها، وخافت منه تعالى هيبة ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من مشاق التكليف، ومؤونات النوائب ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي ينفقون بعض أموالهم ابتغاء مرضاة الله .

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣٦) .

﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة وإنما سميت الإبل بُدناً لعظم بدنها ﴿ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ ﴾ سخَرناها لكم ﴿ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ ﴾ من أعلام دينه التي شرعها

الله تعالى ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي منافع دينية، ودنيوية ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي عند ذبحها بأن تقولوا: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك» ﴿صَوَافٍ﴾ أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت بعد النحر، ووقعت على الأرض، وهو كناية عن الموت ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ﴾ الراضي بما عنده، وبما يُعطى من غير مسألة، والمراد به المتعفف الذي لا يسأل الناس ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي السائل وهو الذي يريك نفسه، ويتعرض لك، والمعتز: هو الذي يطيف بالناس ويطلب منهم ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التسخير ﴿سَخَّرْنَا لَكُمْ﴾ مع عظمها ونهاية قوتها، فلا تستعصي عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا الله على إنعامه.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُورَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ﴾ أي لن يبلغ مرضاته، ولن يصل إليه سبحانه شيء من ﴿لُحُومَهَا﴾ المتصدق بها ﴿وَلَا دِمَائُهَا﴾ المهرقة بالنحر، من حيث إنها لحوم ودماء ﴿وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُورَى مِنْكُمْ﴾ ولكن يصيبه تقوى قلوبكم، التي تدعوكم إلى الامثال بأمره تعالى، وتعظيمه، والإخلاص له ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تكرير للتذكير، والتعليل بقوله ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره، فتوحده بالكبرياء ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي أرشدكم إلى طريق تسخيرها ولمعالم دينه، ومناسك حجه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المخلصين في كل ما يأتون وما يذرون.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يدفع عنهم بأس المشركين، هذه بشارة للمؤمنين بأن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم، وصيغة المفاعلة للمبالغة أي يدفع عنهم مرة بعد أخرى، حسبما تجدد منهم الإضرار بالمسلمين كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تعليل لما في ضمن الوعد الكريم، وإيدان بأن دفعهم بطريق القهر والخزي، أي أن الله يبغض كل خوان في أماناته، وهي أوامره ونواهيه، وكفور لنعمته.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِإِنِّهِمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

﴿أُذِنَ﴾ أي رُخِّص ﴿لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ﴾ أي يقاتلهم المشركون، والمأذون فيه محذوف، للدلالة المذكور عليه، أي أذن لهم بالقتال دفاعاً عن أنفسهم، فإن مقاتلة المشركين إياهم، دالة على الإذن لهم بالقتال ﴿بِإِنِّهِمْ ظَلِمُوا﴾ أي بسبب أنهم ظلموا، وهم أصحاب النبي ﷺ، كان المشركون يؤذونهم، وكانوا يأتونه ﷺ بين مضروب ومشجوج، ويتظلمون إليه فيقول ﷺ لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجروا، فأنزلت الآية، وهي أول آية نزلت في القتال، بعدما نهى الله تعالى عنه، فيما يزيد على سبعين آية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وعدُّ لهم بالنصر، وتأكيده لما مر من العدة بالدفع وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدي المشركين، بل تغليبهم وإظهارهم عليهم، والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم، واردة على سنن الكبرياء، وتأكيده بكلمة التحقيق واللام، لمزيد تحقيق مضمونه، وزيادة توطين نفوس المؤمنين.

(١) سورة المائدة، آية: ٦٤.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا
دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُمْ صَوَامِعَ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ
يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني مكة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي بغير ما يوجب إخراجهم ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ أي بغير موجب سوى التوحيد، الذي ينبغي أن يكون موجباً للإقرار والتمكين، دون الإخراج من الديار والأوطان، ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ﴾ ؟ الآية على طريقة قول النابغة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنْ سيوفُهُم
بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ

﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين ﴿لَهَدَمْتُمْ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل ﴿صَوَامِعَ﴾ للرهبانية المتخذة في الصحراء ﴿وَبِيَعٌ﴾ هي معابد النصارى في البلد ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ كنائس اليهود، سميت بها لأنها يُصَلَّى فيها ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ للمسلمين ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي ذكراً كثيراً وهي صفة مادحة للمساجد، خُصَّتْ بها، دلالة على فضلها، وفضل أهلها^(١) ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ﴾ أي والله لينصرن الله من ينصر رسوله ودينه، ولقد أنجز الله وعده، حيث سلط الله المهاجرين والأنصار، على صناديد العرب، وأكاسرة

(١) فإن قيل: أي من المؤمنين في حفظ الصوامع والكنائس؟ فالجواب أن المراد من الآية الكريمة، لهدمت صوامع في زمن عيسى، وكنائس في زمن موسى، ومساجد في زمن النبي ﷺ، فالامتنان في الآية على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصة، وكان الآية تقول: لولا دفاع الله عن المؤمنين في كل زمان، لهدمت معابد أهل الأديان جميعها.

العجم، وقياصرة الروم، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قوي على كل ما يريد، لا يعجزه شيء، وعزيز لا يمانعه شيء ولا يدافعه.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وصف من الله عز وجل للذين أخرجوا من ديارهم، بما سيكون منهم من حسن السيرة، عند تمكينه تعالى إياهم في الأرض، منبىء عن عدة كريمة، على أبلغ وجه، وعن عثمان رضي الله عنه قال: «هذا ثناء والله قبل بلاء» يريد أنه تعالى أثنى عليهم، قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين، لأن الله عز وجل أعطاهم التمكين، ونفذ الأمر، مع السيرة العادلة ﴿وَاللَّهُ﴾ خاصة ﴿عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۗ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ متضمنة للوعد بإهلاك من يعاديه، أي وإن تحزن على تكذيبهم إياك، فاعلم أنك لست وحدك في ذلك ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل تكذيب قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ كذبوا رسلهم: نوحاً، وهوداً، وصالحاً.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ كذبوا رسلهم أيضاً، وإنما

حذف لكمال ظهور المراد، أو لأن المراد، نفس الفعل ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾
غير النظم الكريم، وبنى الفعل للمجهول، للإيدان بأن تكذيبهم له، كان
في غاية الشناعة، لكون آياته في كمال الوضوح، أي وكُذِّبَ موسى مع
وضوح آياته، وعظيم معجزاته، فما بالك بغيره؟ حتى بنو إسرائيل قد
كذبوه مرة بعد أخرى، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ
نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي أمهلتهم حتى انصرفت آجالهم
﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أخذت كل فريق من المكذبين، بعد انقضاء مدة الإمهال
﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم؟ بتغيير النعمة نقمة، والحياة
هلاكاً، والعمارة خراباً!؟.

﴿فَكَانَ مِنَ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ ﴿٤٥﴾.

﴿فَكَانَ مِنَ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي أهلكتنا كثيراً من القرى، بإهلاك
أهلها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وأهلها ظالمون بكفرهم وتكذيبهم لرسول الله
﴿فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرٌ مَعْطَلَةٌ﴾ أي وكم بئر عامرة في البوادي
تُركت لا يُستسقى منها، لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ أي مرفوع البنيان،
أخلىناه من ساكنيه، أفليس في ذلك عبرة للمعتبرين؟.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿٤٦﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حثُّ لهم على أن يسافروا، ليروا مصارع
المهلكين، فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فيها، ولكنهم حيث لم
يسافروا للاعتبار، جعلوا غير مسافرين، فحُثُّوا على ذلك ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾
بسبب ما شاهدوه ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد ﴿أَوْ

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿ ما يجب أن يسمع من أخبار الأمم المهلكة ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى
 الْأَبْصَارُ ﴿ الضمير للقصة وفي تعمي ضمير راجع إليه، وقد أقيم الظاهر
 مقامه ﴿ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿ أي ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما
 هو في عقولهم، باتباع الهوى، والانهماك في الغفلة، وذكر الصدور
 للتأكيد، كأنه قال: لا عمى في أبصارهم، فإنهم يرون بها، لكن العمى في
 قلوبهم، لأنهم لم ينتفعوا بما أبصروه.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخِيفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ
 كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أي ويستعجلك المشركون بالعذاب سخرية
 واستهزاءً فيقولون: ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ ﴾ وفي ذلك دلالة
 على أنه ﷺ كان ينذرهم بالعذاب إن استمروا على كفرهم ﴿ وَلَنْ يُخِيفَ اللَّهُ
 وَعْدَهُ ﴾ أي لن يخلف الله وعداً أبداً، فلا بد من مجيئه حتماً، والجملة
 حالية كأنه قيل: كيف ينكرون مجيء العذاب، والحال أنه تعالى لا يخلف
 وعده؟ وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه ولو بعد حين؟ ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ
 رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ الآية سيقت لبيان خطئهم في الاستعجال
 ببيان سعة ساحة حلمه تعالى، لأنه حلیم لا يعجل العقوبة، والمدة
 القصيرة عنده تعالى، مدد طوأل عندهم، حسبما ينطق به قوله تعالى:
 ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ ويتخذون تأخير العذاب ذريعة إلى إنكاره،
 ويجترئون على الاستعجال به، ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها ما
 عنده تعالى من المقدار، فيوم واحد من أيام عذابه، في طول ألف سنة من
 سنتكم، ولهذا قال بعده.

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا إِلَيْهَا
 الْمَصِيرُ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكم من أهل قرية ﴿أَمَلَيْتُمْ لَهَا﴾ كما أمليت لهؤلاء، حتى أنكروا واستعجلوا به استهزاءً، كما فعل هؤلاء ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهَا﴾ بالعذاب والنكال بعد الإمهال ﴿وَالِإِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي إلى حكمي، مرجع الكل جميعاً، لا إلى أحد غيري.

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي أنذركم إنذاراً بيّناً، من غير أن يكون لي دخلٌ، حتى تستعجلوا مني العذاب، وإنما اقتصر على الإنذار، مع أنه بشير للمؤمنين ومنذر للمشركين، لأن الحديث عن المشركين المستهزئين، وإنما ذكر ثواب المؤمنين بعده زيادة في غيظ الكافرين.

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يدخل فيه كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يدخل فيه أداء كل ما يجب، وترك كل محذور ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما وقع منهم من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنة، والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله، بيّن الله تعالى أن من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، يجمع الله له بين المغفرة، والرزق الكريم.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا﴾ بِالرَّدِّ، وَالطَّعْنِ، حَيْثُ سَمَوْهَا شِعْرًا، وَسِحْرًا، وَأَسَاطِيرَ الْأَوْلِيَيْنِ ﴿مُعْجِزِينَ﴾ أَي سَابِقِينَ فِي زَعْمِهِمْ لِإِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ، طَامِعِينَ أَنْ كِيدَهُمْ لِلْإِسْلَامِ يَتِمُّ لَهُمْ، وَأَصْلُهُ مِنْ عَاجَزَهُ إِذَا سَابَقَهُ، لِأَنَّ كَلَامَ

من المتسابقين، يريد إعجاز الآخر، عن اللحاق به ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي ملازمو النار الموقدة، وأهلها وأصحابها.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الرسول من بعثه الله بشريعة جديدة، والنبي يعثه، ويشمل من بعثه لتقرير شريعة سابقة ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴾ أي هيا في نفسه ما يهواه ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ في تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ فيبطله ويذهب به، بعصمته عن الركون إليه، وإرشاده إلى ما يزيحه ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُ ﴾ ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في شؤون الحق ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم بكل ما من شأنه أن يعلم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في كل ما يفعل بما يحقق المصالح^(١).

(١) الغرض من هذه الآية، أن الأنبياء والرسل عليهم السلام، وإن عصمهم الله عن الخطأ في العلم، فلم يعصمهم من جواز السهو عليهم، بل حالهم في ذلك كحال سائر البشر، وأما ما قيل: إنه ﷺ كان في نادي قومه، يقرأ سورة النجم، فلما بلغ قوله: ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ جرى على لسانه «تلك الغرائق العلى. وإن شفاعتهن لترتجى» ففرح به المشركون، حتى شايعوه بالسجود، لما سجد في آخر السورة، ثم نبهه جبريل عليه السلام، فاغتم فعزاه الله عز وجل بهذه الآية، فهذا كلام باطل مردود على قائله، وقد ولع به كثير من المستشرقين، فحجوا في الحديث فيه وأوضعوا، للظن في الوحي، ومن أعجب العجب، أن يأخذ به بعض المفسرين من المسلمين، وهو مردود عند المحققين، ولذلك لم يتردد ابن إسحق، حين سئل عنه في أن قال: «إنه من وضع الزنادقة» والذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا، فأستدوه إلى هذه الآية، وآية: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً ﴾^(١).

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٣.

﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ علة لما ينبيء عنه ما ذكر من إلقاء الشيطان في حق الرسول ﷺ، أي ليجعل تلك الشُّبه والوساوس التي يليقها الشيطان

والاحتجاج بهذه الآيات، احتجاج مقلوب، فقصة الغرائق المكذوبة تقضي بأن الرسول ﷺ رَكَنَ إلى قريش بالفعل، والآية هنا تقول: إن الله ثبته فلم يفعل، على أن الاحتجاج بها يتنافى مع عصمة الرسل، في تبليغ رسالاتهم، ويتنافى مع تاريخ الرسول ﷺ، وكل ما فيها احتجاج متهافت، وأمَّا الآيات التي نحن في تفسيرها، فلا صلة لها بحديث الغرائق البتة، وأول ما يدل على أن هذه القصة موضوعة، اضطراب رواتها، وانقطاع سندها، واختلاف ألفاظها، فقائل يقول: إن النبي ﷺ كان في الصلاة، وآخر يقول: قرأها وهو في نادي قومه، وآخر يقول: قرأها وقد أصابته سِنَّةٌ، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وغير ذلك، ولم يروها أحد من أهل الصحة، ولا أسندها ثقةً بسندٍ صحيح، أو سليم متصل، وإنما رواها المفسرون، والمؤرخون المولعون بكل غريب، الملققون من الصحف كل صحيح وسقيم، وقد قامت الدلائل على صدقه ﷺ، وأجمعت الأمة على عصمته، ونزاهته من مثل هذا، ومن الإخبار عن شيء من التبليغ بخلاف ما هو به، لا قصدًا، ولا سهوًا، ولا غَلَطًا، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ وقال تعالى: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فكيف يجوز الغلط عليه ﷺ في التلاوة، وهو معصومٌ منه؟ ودليل آخر أقوى وأقطع، وهو سياق سورة النجم، وعدم احتماله لمسألة الغرائق، لأن هذا السياق صريح، في أَنَّ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، أسماءٌ سَمَّاهَا المشركون، هم وآباؤهم، ما أنزل الله بها من سلطان، وإن في هذا السياق، من الفساد، والاضطراب، والتناقض، ومدح اللَّاتِ وَالْعُزَّى وذمَّها، في أربع آيات متعاقبة، ما لا يسلم به عقل، ولا يقول به إنسان، مع أن وصف العرب لآلهتهم، بأنها الغرائق، لم يرد في نظمهم، ولا في خطبهم، ولم يُنقل عن أحد، أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وإنما أورد الغزنيق، على أنه لطائر مائي، ولا شيء في ذلك ممَّا يلائم معنى الآلهة، أو وصفها عند العرب، فلا أصل إذن لمسألة الغرائق وكلها أخبار باطلة .

﴿فَتَنَةٌ﴾ محنة وابتلاء ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شكٌ ونفاق ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين فيزدادوا به ظلمة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي الفريقين المذكورين في عداوة شديدة، ومخالفة تامة، فوضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي هو النازل من عنده تعالى ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي بالقرآن، بأن يثبتوا على الإيمان، ويزدادوا إيماناً، بردّ ما يلقي الشيطان ﴿فَتُخْبِتَ﴾ أي فتطمئن ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد، والخشية، والإذعان لما فيه من الأوامر والنواهي، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في الأمور الدينية، فيتأولون ما يتشابه في الدين، بالتأويلات الصحيحة، فلا تلحقهم حيرة ولا شبهة ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بالنظر الصحيح الذي يوصلهم إلى ما هو الحق.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ﴾ أي في شك وجدال ﴿مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي حتى تأتيهم القيامة فجأة من حيث لا يشعرون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ لا يوم بعده، كأن كل يوم يلد ما بعده، كما يقال: الليلة الحبلية، فما لا يوم بعده يكون عقيماً، والمراد به الساعة أيضاً، كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، فوضع ذلك موضع ضميرها، لمزيد التهويل.

﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿ الْمَلِكُ ﴾ أي السلطان القاهر، والتصرف على الإطلاق ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لِلّهِ ﴾ وحده بلا شريك، بحيث لا يكون فيه لأحد تصرف، لا صورة ولا معنى ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين المؤمنين به، والممارين فيه ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ تفسير للحكم المذكور، أي فالذين آمنوا بالقرآن الكريم، ولم يماروا فيه ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ امثالاً بما أمروا في تضاعيفه ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أي مستقرون فيها.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي أصروا على ذلك واستمروا ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي يهانون به، مع الخزي والصغار.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِلَى اللَّهِ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ في طاعة الله، وطلب رضاه ﴿ ثُمَّ قَاتَلُوا ﴾ في الجهاد ﴿ أَوْ مَاتُوا ﴾ في تضاعيف المهاجرة، روى مجاهد أنها نزلت في طوائف، خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة، فتبعهم المشركون فقاتلوهم، وظاهر الكلام للعموم ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ ﴾ جواب لقسم محذوف ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي لا ينقطع أبداً، من نعيم الجنة، وإنما سوى بينهما في الوعد، لاستوائهما في القصد، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴾ فإنه يرزق بغير حساب، مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحد.

﴿ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿ لِيُدْخِلَنَّهُمْ ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿ لِيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ ﴾ ﴿ مُدْخَلًا ﴾ هو الجنة ﴿ يَرْضَوْنَهُ ﴾ فإنهم يرون فيها، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيرضونه ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم وأحوال معادهم ﴿ حَلِيمٌ ﴾ بإمهال من قاتلهم.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر ذلك، والجملة للتقرير ما قبله، والتنبيه على أن ما بعده كلام مستأنف ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ أي ولم يزد في الاقتصاص، ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ بال معاودة إلى العقوبة ﴿ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ على من بغى عليه لا محالة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ ﴾ أي مبالغ في العفو والغفران، وفيه تحريض على العفو والمغفرة، وتنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة ومع ذلك يعفو. قيل: نزلت في قوم من المشركين، لقوا قوماً من المسلمين في المحرم، فقال بعضهم لبعض: إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام، فاحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم، لحرمة الشهر فأبوا وقتلوهم، فذلك بغيم عليهم، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم.

﴿ ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ﴿٦١﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ذلك النصر للمظلوم ﴿ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ ويؤلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ أي بسبب أنه قادر على ما يشاء، ومن شأنه

المدافلة بين الأشياء المتضادة، بإدخال الليل في النهار وبالعكس، ﴿وَأَنَّ
 اللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بكل المسموعات ﴿بَصِيرٌ﴾ بجميع المبصرات.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ
 الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ أي الاتصاف بما ذكر، من كمال القدرة والعلم ﴿يَأْتِ
 اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ الواجب لذاته، الثابت في نفسه، وصفاته وأفعاله، فهو
 وحده المعبود الحق، وهو الخالق الرازق، العالم بكل المعلومات ﴿وَأَنْتَ
 مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلهاً ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ المعدوم الذي لا يقدر على
 شيء، الباطل في ألوهيته ﴿وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء
 ﴿الْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له شريك، لا شيء أعلى منه شأنًا أو أكبر
 سلطاناً.

﴿الَّذِي تَرَى رَبَّكَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً
 إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٣﴾.

﴿الَّذِي تَرَى رَبَّكَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ استفهام
 تقرير، كما يفصح عنه رفع فتصبح، أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء
 بعد يبسها وجذبها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل لطفه، وعلمه إلى كل ما جلَّ
 ودقَّ ﴿خَبِيرٌ﴾ بما يليق من التدابير وأحوال العباد.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٤﴾.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، وتصرفاً ﴿وَإِنَّ
 اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ عن كل شيء ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد، بصفاته،
 وأفعاله.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَأَلْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ
وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي جعل ما فيها من الأشياء مذلة
لكم، معدة لمنافعكم، تتصرفون فيها كيف شئتم ﴿ وَأَلْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ ﴾ أي بإذنه ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ ﴾ أي من أن تقع، بأن
خلقها على هيئة متداعية لا تستمسك بنفسها ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أي بمشيئته
تعالى، وفيه ردٌّ على من زعم استمسакها بذاتها، فإنها متساوية في
الجسمية كسائر الأجسام فتكون قابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها
﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث هيا لهم أسباب معاشهم، وفتح عليهم
أبواب المنافع، وأوضح لهم مناهج الاستدلال، بالآيات التكوينية
والتنزيلية.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ
لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ عند البعث ﴿ إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ أي جحود للنعم، مع ظهورها، لا يعرف نعمة الإنشاء
المبدئ للوجود، ولا الإفناء المقرب إلى الموعود، ولا الإحياء الموصل
إلى المقصود.

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاَدْعُ
إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي لكل أمة معينة، من الأمم الخالية والباقية

﴿جَعَلْنَا﴾ أي وضعنا وعيناً ﴿مَنْسَكًا﴾ أي شريعة خاصة ﴿هُمْ نَاسِكُونَ﴾ عاملون به بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، وهو رد لقول من يقول: إن الذبح ليس بشريعة الله، إذ هو شريعة كل أمة ﴿فَلَا يُتْرَعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي فلا تلتفت إلى قولهم، زعماً منهم أن شريعتهم التوراة والإنجيل، فإنهما كانا شريعتين لمن مضى من الأمم، وأهل هذا العصر أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد ﴿وَأَدْعُ﴾ ادع الناس كلهم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيدهِ وعبادته، وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي طريقٍ موصلٍ إلى الحق واضحٍ مستقيم، موصلٍ إلى جنات النعيم، وهو دين الإسلام الخالد.

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ﴾ تعنتاً كما يفعله السفهاء بعد ظهور الحق، ولزوم الحجة عليهم ﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيد ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأباطيل، ومنها المجادلة فيجازيكم عليها أسوأ الجزاء.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي يفصل بين المؤمنين منكم، والكافرين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بالثواب والعقاب، كما فصل بالحجة والآيات في الدنيا ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيظهر حينئذٍ الحق من الباطل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ لتقرير أي قد علمت ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

أي لا يخفى عليه شيء من الأشياء، التي من جملتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي ما في السماوات والأرض ﴿فِي كِتَابٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، وقال أبو مسلم: معنى (الكتاب) الحفظ والضبط ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من العلم والإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي هين، فإن علمه وقدرته مقتضى ذاته، فلا يخفى عليه شيء، ولا يعسر عليه مقدور.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٧١).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي ما لم يرد به حجة ولا برهان ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي ليس لهم علم بجواز عبادته، فهم إنما يعبدون الأصنام بمجرد الجهل، ومحض التقليد ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ يساعدهم بنصرة مذهبهم، أو بدفع عذابهم.

﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْأَمِيرُ﴾ (٧٢).

﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيَّنَّتْ﴾ أي حال كونها واضحة الدلالة، على صدق الرسول، وكونها من عند الله عز وجل ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ﴾ أي الإنكار، والكراهة، والشر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ أي يكادون يبطشون بهم من فرط الغيظ، والسطو: شدة البطش والوثوب ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ يعلم النبي ﷺ

وأصحابه ﴿ قُل ﴾ رداً عليهم، وإقناعاً عما يقصدونه من الإضرار ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي أخبركم ﴿ بِشَرِّ مَن ذَلِكُمْ ﴾ الذي فيكم من غيظكم على التالين ﴿ النَّارِ ﴾ أي هو النار ﴿ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ أي وعدّها الله لكل كافر فاجر، وبثت النار مرجعاً لهم.

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ ﴾ أي بيّن لكم حال مستغربة، وقصة بديعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلاً، تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة، وأريد بذلك ما حكى عنهم، من عبادتهم للأصنام ﴿ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ للمثل استماع تدبر وتفكر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ بيان للمثل يعني الأصنام ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ أي لا يقدرّون على خلقه مجتمعين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين، وتخصيص الذباب لصغره، وضعفه، واستقذاره ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا ﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب، أي إنّ يأخذ الذباب منهم شيئاً ﴿ لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ مع غاية ضعفه، ولقد جهلوا غاية التجهيل، في إشراكهم بالله، القادر على جميع المقدورات، تماثيل هي أعجز الأشياء، وبين ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها، وتعجز عن ذبّه عن نفسها، ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ أي عابد الصنم ومعبوده، أو الذباب الطالب والصنم المطلوب منه، ولو حققت وجدت الصنم أضعف من الذباب بدرجات، وعابده أجهل من كل جاهل وأضل.

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ﴿٧٤﴾ .

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته، حيث أشركوا

به أحسن الأشياء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها، وإفناء الموجودات عن آخرها ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع الأشياء، فكيف يتخذ العاجز شبيهاً به؟ فسبحان الله، الأوهام لا تصوره، والأفكار لا تقدره، والعقول لا تمثله، والأزمنة لا تدرکه، والجهات لا تحيط به، صمدي الذات، سرمدي الصفات ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي﴾ يختار ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ كجبريل وميكائيل وغيرهما، يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء بالوحي ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي يختار الله من الناس رسلاً، وهم الذين يختصون بالنفوس الزكية، المؤيدون بالقوة القدسية، المتعلقون بكلا العالمين الروحاني والجسماني، يتلقون من جانب ويلقون إلى جانب، ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق، عن التبتل إلى جانب الحق، فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم، ويعلمونهم شرائعه وأحكامه مثل «إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومُحمد» عليهم السلام.

كانه تعالى لَمَّا قَرَّرَ وحدانيته في الألوهية، بَيَّنَّ أن له عباداً مصطفون لتبليغ الرسالة، وشرائع الدين ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي هو الرقيب على العباد، يعلم أحوالهم وأعمالهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي مرجع أفعال العباد فيجازيهم عليها، فقله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾ الخ إشارة إلى العلم التام، وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ﴾ الخ إشارة إلى التفرد في الحكم، ومجموعها يقتضي نهاية التجنُّب عن المعاصي.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ
وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي صلوا لربكم خاشعين، وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله وخزوا سجداً، وفيه دليل على أن هذه السجدة للصلاة، لا للتلاوة، لأنه تعالى قرن السجود بالركوع، وهو قول الحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وأبي حنيفة، ومالك، وروي عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس أنهم قالوا في الحج سجدتان، وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد، ويدل عليه ما روي عن عتبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله: أفي الحج سجدتان؟ قال: «نعم»^(١) ﴿وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبدكم به، أخلصوا له العبادة ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ وتحروا ما هو خير وأصلح، في كل ما تأتون وما تذرّون، كنوافل الطاعات، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق، وغير ذلك من أعمال البرِّ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعلوا هذه كلها، وأنتم راجون للفلاح، كي تفوزوا وتسعدوا.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي
الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۗ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا
لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جاهدوا لله تعالى، ومن أجله أعداء دينه، ومعنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ استفراغ الطاقة فيه والألّا يخاف في الله

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود من رواية عتبة بن عامر.

لومة لائم، وأن يكون الجهاد خالصاً لله، لتكون كلمة الله هي العليا، لقوله ﷺ «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»^(١) ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ﴾ أي هو اختاركم لدينه، ونصرته لا غيره، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي من ضيق وشدة، بتكليف ما يشق عليكم إقامته، فليس في دين الإسلام، ما يصعب أو يستحيل فعله، فقد بعث ﷺ «بالحنيفية السمحة» فيها اليسر والسهولة، كقصر المسافر للصلاة، والتيمم عند فقد الماء، وتشريع الدية في القتل الخطأ. الخ ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أعني بالدين ملة أبيكم وإنما جعله أباهم، لأنه أب الرسول ﷺ، وهو كالأب لأُمَّته، أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته فغلبوا على غيرهم ﴿هُوَ سَمَنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ في الكتب المتقدمة ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي وفي القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ يوم القيامة ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بطاعة من أطاع، وعصيان من عصى ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل لهم ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي ثقوا بالله في أموركم ﴿هُوَ مَوْلَانَكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾ إذ لا مثل له، في الولاية والنصرة ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي نعم الناصرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وصلى اللهُ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربَّ العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج».

(١) الحديث أخرجه الشيخان البخاري، ومسلم.